الفصـــــــل الثاني عشـــر

مصر كولاية رومانية وبيزنطية

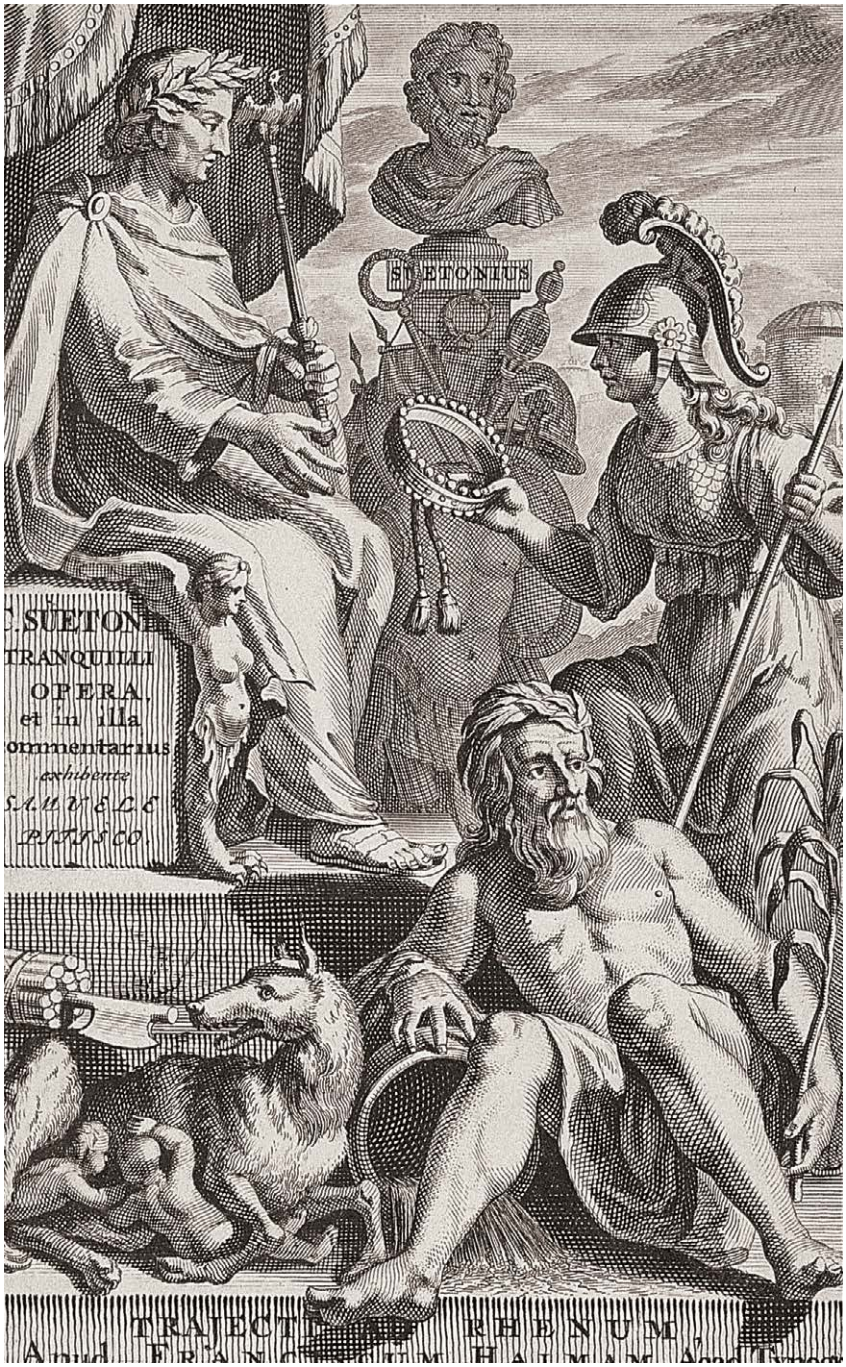

٢٦٣. صفحة العنوان من طبعة Suetonius، «De vita Caesarum»، ليوواردن، apud Franciscum Halmam، ١٦٩٠.

بعد اغتيال يوليوس قيصر ودخول ماركوس أنطونيوس إلى المشهد السياسي، وحتى وفاة كليوباترا السابعة عام ٣٠ ق. م. كانت الإشارة الوحيدة المتعلقة بمكتبة الإسكندرية قد وردت في سيرة ماركوس أنطونيوس الذاتية التي كتبها بلوتارخوس، ووفقاً لمصدر غير معروف استشهد به المؤرخ السالف الذكر مع تحفظه: قام ماركوس أنطونيوس بإهداء ٢٠٠,٠٠٠ مجلد كانت تضمها مكتبة بيرغامون إلى كليوباترا،[1] ولابد من وقوع ذلك الحدث ما بين عام ٤٠ ق. م. وتاريخ وفاتها، ولم ترِد تلك المعلومة في أي مصدر آخر كما لم تكن هناك أدنى إشارة إليها من قِبل أي مؤرخ أو سياسي في ذلك العصر.

٢٦٤. تمثال نصفي للإسكندر الأكبر من طبعة: «Ἀρχαία Ἀλεξάνδρεια»، موسكو ١٨٠٣، [٥٠] (م. أ).

بعد وفاة آخر ملكة من الأسرة البطلمية، دخلت مصر في دائرة نفوذ روما، ولكن مع عدم تغيير الطابع العام للمتحف والمكتبة بشكل جذري، وعلى الرغم من أن أوكتافيوس قد كتب في سيرته الذاتية (Res Gestae divi Augusti): «لقد قمت بضم مصر إلى سلطة الشعب الروماني» إلا أن مصر لم تكن قط ولاية رومانية، بل تمت إدارتها باعتبارها ملكية شخصية للإمبراطور.[2]

وفي الحقيقة كانت مصر تقع تحت إدارة مجموعة جيدة التنظيم تحظى بدعم الجيش، وكانت لديها القدرة على مواجهة تمردات البدو الرحّل وضمان استمرار النظام في المدن، ولكن مع وجود تمييز ضد السكان الأصليين. لقد تم تحويل المتحف والمكتبة إلى «مؤسسة إمبراطورية»، حتى أن الكاهن رئيس المكتبة كان يتم تعيينه مباشرة من قِبل الإمبراطور.[٣]

وبالانتقال من عصر النظام السياسي الحر إلى النظام الإمبراطوري، تم تطبيق نظام جديد خاص بتنظيم المكتبات في جميع أنحاء الإمبراطورية بمبادرة من يوليوس قيصر نفسه، حيث أُنشِئت المكتبات المزدوجة التي كانت تحتوي على قسمين أو مبنيين منفصلين لتصنيف الكتب اليونانية بمعزل عن الكتب اللاتينية،[٤] وكان هدف قيصر الأساسي يتمثل في الارتقاء بالأدب اللاتيني إلى مستوى نظيره اليوناني، ولهذا السبب قام بتكليف فارّو بكتابة دراسة خاصة عن المكتبات، وهو ما ظهر لنا في عمله (De Bibliothecis) الذي لم يصل إلينا. وإلى جانب ذلك كان قيصر يخطط لتأسيس أول مكتبة عامة في روما، حيث قام بتحقيق رؤيته تلك صديقه المخلص أثينيوس بوليو بعد وفاة قيصر عام ٣٩ ق. م.

٢٦٥. أغسطس. نقش من طبعة Suetonius، «De vita Caesarum»، ليوواردن، apud Fr. Halmam، ١٦٩٠.

مكتبة معبد سيباستيون

لم يكتف أغسطس بتحويل المتحف والمكتبة الشهيرين إلى مؤسسة إمبراطورية، بل ورغبة منه في تذكير سكان الإسكندرية وكذلك العديد من الزوّار بأن دولة الفراعنة والبطالمة قد أصبحت الآن ملكاً للإمبراطورية قام بتحويل معبد عظيم إلى مركز فكري. كان هذا المعبد يُسمى قيصريون وتم بناؤه خلال عهد كليوباترا بعد اغتيال يوليوس قيصر عام ٤٤ ق. م. في الموضع الذي صعد منه قيصر على متن سفينته المتجهة إلى

روما في يونيو من عام ٤٧ ق. م. وبعد وفاة أغسطس عام ١٤م تم تجميل المعبد، وفي عهد تيبيريوس تم توسيعه وإعادة تسميته وفقاً لفيلون بالـ «سيباستيون».[٥] وكان مبنى المعبد يقع مقابل الميناء، كما كان يحتوي على أبهاء معمّدة وأروقة مزينة بالتماثيل وأعمال فنية ومكتبة بطبيعة الحال، وبالإضافة إلى ذلك كان المعبد يعدّ صورة مصغرة من

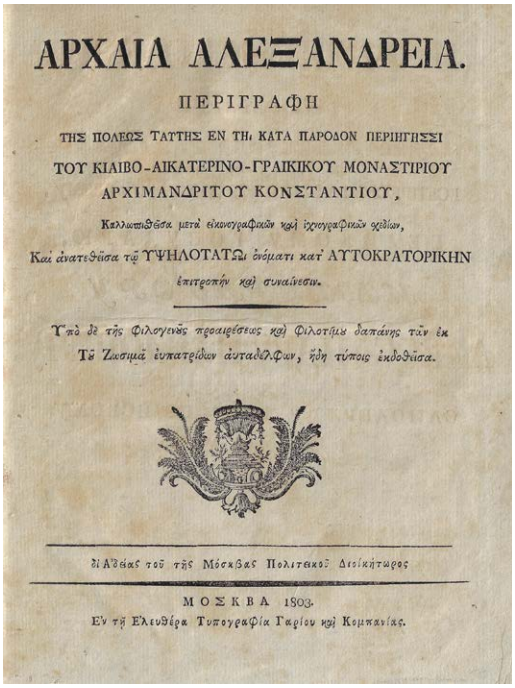
ΑΡΧΑΙΑ ΑΛΕΞΑΝΔΡΕΙΑ.

ΠΕΡΙΓΡΑΦΗ

ΤΗΣ ΠΟΛΕΩΣ ΤΑΥΤΗΣ ΕΝ ΤΗ ΚΑΤΑ ΠΑΡΟΔΟΝ ΠΕΡΙΗΓΗΣΕΙ

ΤΟΥ ΚΙΑΙΒΟ-ΑΙΚΑΤΕΡΙΝΟ-ΓΡΑΙΚΙΚΟΥ ΜΟΝΑΣΤΙΡΙΟΥ

ΑΡΧΙΜΑΝΔΡΙΤΟΥ ΚΟΝΣΤΑΝΤΙΟΥ,

Καλλωπισθεῖσα μετὰ εἰκονογραφιῶν καὶ ἰχνογραφικῶν σχεδίων,

Καὶ ἀνατεθεῖσα τῷ ΥΨΗΛΟΤΑΤΩι ὀνόματι κατ' ΑΥΤΟΚΡΑΤΟΡΙΚΗΝ

ἐπιτροπὴν καὶ συναίνεσιν.

Ὑπὸ δὲ τῆς Φιλογενοῦς προαιρέσεως καὶ Φιλοτίμου δαπάνης τῶν ἐν

Τῇ Ζωσιμᾷ ἐυπατρίδων ἀυταδέλφων, ἤδη τύποις ἐκδοθεῖσα.

διʼ Ἀδείας τοῦ τῆς Μόσκβας Πολιτικοῦ Διοικήτορος

ΜΟΣΚΒΑ 1803.

Ἐν τῇ Ἐλευθέρᾳ Τυπογραφίᾳ Γαρίου καὶ Κομπανίας.

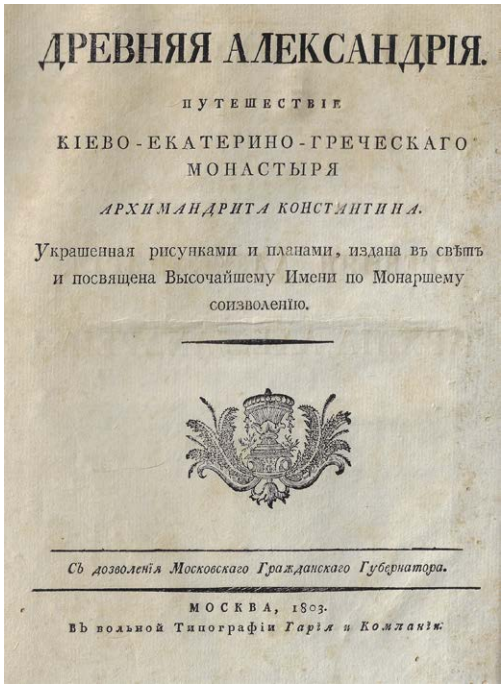
ДРЕВНЯЯ АЛЕКСАНДРІЯ.

ПУТЕШЕСТВІЕ

КІЕВО-ЕКАТЕРИНО-ГРЕЧЕСКАГО МОНАСТЫРЯ

АРХИМАНДРИТА КОНСТАНТИНА.

Украшенная рисунками и планами, издана въ свѣтъ и посвящена Высочайшему Имени по Монаршему соизволенію.

Съ дозволенія Московскаго Гражданскаго Губернатора.

МОСКВА, 1803.

Въ вольной Типографіи *Гарія и Компаніи.*

٢٦٦. صفحة العنوان من الطبعة الخاصة بعمل الأرشمندريت قنسطنطيوس «Ἀρχαία Ἀλεξάνδρεια» والتي نُشرت باللغتين اليونانية والروسية، موسكو ١٨٠٣ (م. أ).

معبد ربّات الإلهام وكان الهدف منه هو خدمة السياسة الثقافية التي تبناها أغسطس وتقديمه في صورة برّاقة كمتحف الإسكندرية، حتى تكون له مكانة في عالم الفكر في الشرق والغرب.[٦] وليس لدينا معلومات عن كيفية تنظيم المكتبة التي كان يحتوي عليها المعبد ولا عن مصيرها، ومع ذلك فقد تمت الإشارة إليها بالإضافة إلى تمثيل ما تبقى من المعبد في عمل الأرشمندريت قنسطنطيوس (Ἀρχαία Ἀλεξάνδρεια) على النحو التالي:

(Περιγραφὴ τῆς πόλεως ταύτης ἐν τῇ κατὰ πάροδον περιηγήσει τοῦ Κιαιβο-Αἰκατερινο-Γραικικοῦ μοναστιρίου ἀρχιμανδρίτου Κονσταντίου ..., Μόσκβα, Ἐν τῇ Ἐλευθέρᾳ Τυπογραφία Γαρίου καὶ Κομπανίας, ١٨٠٣)[٧].

وتم نشر هذا العمل باللغتين اليونانية والروسية كما تم إهداؤه إلى إمبراطور روسيا ألكسندر الأول، في حين تم تمويله من قِبل الإخوة زوسيماديس، وفيه يستشهد الأرشمندريت قنسطنطيوس - بعد الثناء على «الإمبراطور محب كل ما يتعلق بمعرفة الآثار» - بمقتطف لهيرودوت مأخوذ من الكتاب الأول (Κλειώ) من مؤلَّفه (Ιστορίαι) كما يلي:

(Τὰ μικρὰ καὶ μεγάλα ἄστεα, τὰ γὰρ τὸ πάλαι μεγάλα ἦν, τὰ πολλὰ αὐτῶν σμικρὰ γέγονε, τὰ δὲ ἐπ’ ἐμεῦ ἦν μεγάλα, πρότερον ἦν σμικρά. τὴν ἀνθρωπηίην ὦν ἐπιστάμενος εὐδαιμονίην οὐδαμὰ ἐν τωὐτῷ μένουσαν Ἡρόδοτος ἐν τῇ πρώτῃ τῶν ἱστοριῶν Κλειῷ.)[٨]

ويعد فيلون السكندري هو أول من أشار إلى معبد سيباستيون بالإسكندرية وإلى وجود مكتبة بداخله كما يتضح من النصّ التالي:

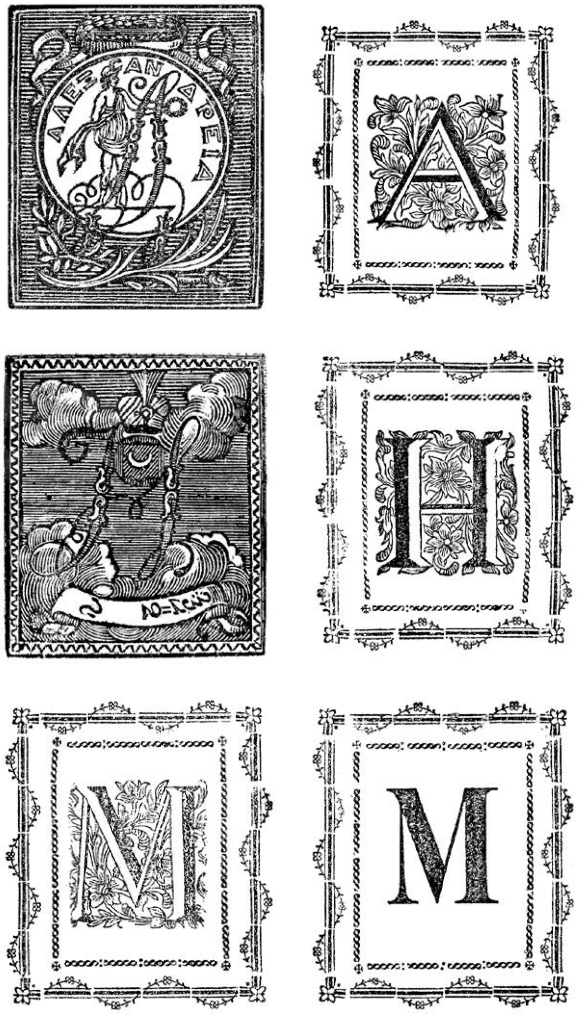

٢٦٧- ٢٧٢. الحروف الأولى المزخرفة من النص المكتوب باللغتين اليونانية والروسية من طبعة «Αρχαία Ἀλεξάνδρεια»، موسكو ١٨٠٣ (م. أ).

(Οὐδὲ γὰρ τοιοῦτόν ἐστι τέμενος, οἷον τὸ λεγόμενον Σεβάστιον [ἢ κατ’ ἄλλη γραφή Σεβαστεῖον], ἐπιβατηρίου Καίσαρος νεώς, ὅς ἀντικρὺ τῶν εὐορμοτάτων λιμένων μετέωρος ἵδρυται μέγιστος καὶ ἐπιφανέστατος καὶ οἷος οὐχ ἑτέρωθι, κατάπλεως ἀναθημάτων, [ἐν] γραφαῖς καὶ ἀνδριάσι, καὶ ἀργύρῳ καὶ χρυσῷ περιβεβλημένος ἐν κύκλῳ, τέμενος εὐρύτατον, στοαῖς, βιβλιοθήκαις, ἀνδρῶ σιν, ἄλσεσι, προπυλαίοις, εὐρυχωρίαις, ὑπαίθροις, ἅπασι τοῖς εἰς πολυτελέστατον κόσμον ἠσκημένον, ἐλπὶς καὶ ἀναγομένοις καὶ καταπλέουσι σωτήριος.)[٩]

لقد أضاف الأرشمندريت قنسطنطيوس إلى روايته[١٠] رسوماً توضيحية، ولكنها لم تجب على العديد من التساؤلات المنطقية المتعلقة بمكتبة معبد سيباستيون بشكل جيد، وعند إشارته كذلك إلى آثار الإسكندرية وإلى المعلومات التي أدلى بها بعض الكُتّاب الأجانب قام بالتحدث عن منارة الإسكندرية ومتحفها ومكتبتها، ومعبد قيصر (سيباستيون)، ومعبد السيرابيوم، والمسلات ثم اختتم حديثه بنصّ عن الهيروغليفية (Περὶ ἱερογλύφων). وبعد حديثه عن مكتبة سيباستيون قام بسرد كل ما يتعلق بمعبد قيصر (الذي كان يقع بلا شك بعد مباني القصور ومكتبة الإسكندرية) على حد قوله، كما قام بذكر ما أشار

٢٧٣. نقش يزيّن النص المكتوب باللغة الروسية الخاص بفصل « الإسكندرية الجديدة» من طبعة «Ἀρχαία Ἀλεξάνδρεια»، موسكو ١٨٠٣ [٤٢] (م. أ).

إليه فيلون عن المعبد ومكتبته، ومنذ ذلك الحين – على حد علمي – لم يتم التعليق على المعلومات التي قدمها فيلون مطلقاً كما لم يتم ذكرها من قِبل مؤرخي الكتب أو مؤرخي مكتبة الإسكندرية الآخرين باستثناء كارل فيدل في عمله (Kleine Schriften).[١١]

ترى، كيف كانت سمات تلك المكتبة؟ هل تم تنظيمها وفقاً لنظام المكتبة المزدوجة التي كان يتم الفصل فيها بين القسمين اليوناني واللاتيني، بحكم الترتيب الذي تم اتباعه في أول مكتبة عامة في روما، أم – ربما قبل ذلك – وفقاً لمؤلَّف فارّو (De Bibliothecis) الذي تم تأليفه بأمر من يوليوس قيصر؟[١٢] وعلى أي حال فهي

٢٧٤. نقش يحتوي على مسلة كليوباترا من طبعة «Ἀρχαία Ἀλεξάνδρεια»، موسكو ١٨٠٣ (م. أ).

كانت على الأرجح مكتبة عامة، ولابد من أنه قد تم تجميع كتبها من أماكن متعددة منها مكتبة الإسكندرية، أو أن يكون قد تم نسخ تلك الكتب من المؤلَّفات المحفوظة في مكتبة الإسكندرية أيضاً.[١٣]

الحالة اللغوية

لم يغير نظام الحكم التابع للسلطة الرومانية في مصر من استخدام اللغة التي فرضها البطالمة، وعلاوة على ذلك كانت الهيئة الإدارية العسكرية الرومانية هناك تمثل أقلية وبالتالي لم يتم إحداث أي تغيير جوهري في لغة التواصل، فكان استخدام اللغة اللاتينية إلزامياً في الجيش الروماني وكذلك في كتابة الوثائق الرسمية (كشهادات الميلاد والوفاة والوصيّة) التي كانت تُصدر للمواطنين الرومان. وعلى الرغم من صدور مرسوم كاراكلّا الذي منح الجنسية الرومانية للأحرار في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية عام ٢١٢م وكذلك محاولة الإمبراطور دقلديانوس القيام بتطبيق الأساليب الإدارية في مصر أيضاً والمعمول بها في جميع الولايات الرومانية آنذاك، إلا أن اللغة اللاتينية لم تتمكن من فرض نفسها على حصون اللغة اليونانية التي استمرت حتى الفتح العربي أو بعده.[١٤]

ويعد كاراكلّا من الأمثلة التي تدل على مدى القوة التي كان يتمتع بها متحف الإسكندرية ومكتبتها حتى داخل البلاط الإمبراطوري في روما (وبشكل خاص نظراً لأن هاتين المؤسستين كانتا تقعان في المكان الذي دُفن فيه الإسكندر الأكبر)، ووفقاً لديو كاسيوس، كان لدى ماركوس أوريليوس سيفيروس أنطونينوس أغسطس الملقب بكاراكلّا إعجاباً غير محدود بالقائد المقدوني، لدرجة أنه لم يكن فقط يستخدم بعض الأسلحة والأواني التي من المفترض أنها كانت تنتمي للإسكندر، بل قام بفرض الأنظمة التي تم ابتكارها بفضل العبقرية العسكرية والإدارية للإسكندر في المعسكرات الرومانية وفي روما نفسها. ولكن يبدو أن تلك الأمور لم ترض جنونه المتعلق بشخصية الإسكندر، ولذلك زعم أمام مجلس الشيوخ أن الإسكندر قد تجسد في صورة أغسطس (أي في شكله وشخصيته) وأنه من خلاله سيتمكن الإسكندر من إكمال وجوده على الأرض. وبسبب هوسه كذلك بظروف وفاة الإسكندر واعتقاده بأنه مات مسموماً، كان يشير بأصابع الاتهام إلى أرسطو، وانتقاماً لذلك قام بتهديد أتباع أرسطو في المدرسة السكندرية بحرق كتبهم وإلغاء التغذية المجانية والامتيازات الأخرى التي كانوا يتمتعون بها داخل المتحف.[١٥]

٢٧٥. تجمّع العلماء في أحد أماكن المكتبة، نقش من طبعة ذ. لونجينوس، «Περί Ὕψους Ὑπόμνημα»، لندن، J. Tonson & J. Watts، ١٧٢٤.

معلومات عن أعضاء المتحف

تم العثور على العديد من البرديات التي تعود إلى العهد الروماني من (الرسائل، والحسابات، والمدفوعات وجميع أنواع النصوص المكتوبة) والتي زودتنا بمعلومات عن أعضاء المتحف وعلاقتهم بالكتب، ومن الأمثلة على ذلك يمكننا الإشارة إلى معلومة يرجع تاريخها إلى عام ١٥٥ م حيث تتضمن أنه في بلدة (Εὐημερία) بمنطقة الفيوم كانت هناك حقول ملكاً للفيلسوف يوليوس أسكليبياديس «أحد أعضاء قسم الفلسفة بالمتحف»[١٦] وهناك معلومة أخرى مفادها أن عضواً آخراً من أعضاء المتحف يدعى فاليريوس تيتانيانوس كانت له حقول كذلك في فيلادلفيا، بينما تم العثور على نقش تكريمي في مدينة أنتينوي – ربما يعود تاريخه للقرن الثالث الميلادي – كان يحتوي على قرار من المجلس المحلي بتكريم الفيلسوف الأفلاطوني فلافيوس ميكيوس سي[فيريانوس؟] ديونيسودوروس أحد أفراد المجموعة التي كان لها حق الطعام المجاني في متحف الإسكندرية.[١٧] كل هذا يدل على أن الحالة العامة في المتحف استمرت كما هي منذ عهد بطليموس الأول ولم تتغير خلال العصر الروماني، وأن أعضاء المتحف واصلوا التمتع بالرعاية «الملكية». وهناك بردية أخرى أكثر إثارة للاهتمام يرجع تاريخها إلى عام ١٧٣م وفيها يتبادل شخص يُدعى فاليريوس ديودوروس «أحد أعضاء المتحف وأحد المعلقين السابقين على أعمال المؤلفين القدامى» آراءً تنبع من الاهتمام بالكتب مع شخص آخر يُدعى بوليانوس، وكذلك مع (فاليريوس) هاربوكراتيون النحويّ ومؤلف المعاجم المنتمي إلى القرن الثاني الميلادي والذي وُلد وبرز في الإسكندرية[١٨]، والمعروف لنا بصفته مؤلف معجم الخطباء العشرة الذي يتناول أموراً عدة من بينها سُبُل جمع الكتب.[١٩]

وهناك معلومة أخرى هامة للغاية تعود إلى القرن الثاني من الميلاد تم استمدادها من الرسائل التي كُتبت في الإسكندرية وتتعلق بتكلفة نسخ المخطوطات، وتحديداً تم استخلاص تلك المعلومة من وثيقة مدفوعات ربما تم العثور عليها في أوكسيرينخوس، وفيها تم سرد (τά γράπτρα) أي المبالغ التي دُفعت لأحد الكَتبة مقابل قيامه بنسخ بعض الكتب كما يلي: تم دفع مبلغ اثني عشر دراخما مقابل نسخ عمل (Πλούτος) لأريستوفانيس، وعمل غير معروف بالإضافة إلى عمل (Θυέστης) لسوفوكليس.[٢٠] وهناك بعض الوثائق الأخرى التي تحدثت عن وجود فئتين من الأجر: الأولى قيمتها ٢٨ دراخما لكل ١٠,٠٠٠ بيت، والثانية أرخص وقيمتها ٢٠ دراخما و٤ أبولات لنفس العدد من الأبيات.[٢١] وتعد هذه المعلومات ذات أهمية كبيرة نظراً لأنها تكشف عن النظام

المختلف الذي كان سائداً في روما والإسكندرية فيما يتعلق بإنتاج الكتب وتوزيعها، ففي روما تم تنظيم تجارة الكتب اعتماداً على العبيد المتخصصين في هذا الشأن مع وجود احتمالات كبيرة للتصدير، بينما لم تنطبق نفس الحالة على الإسكندرية التي كان يتم فيها تداول الكتب داخل دوائر أدبية صغيرة ومغلقة في الغالب، وكان ذلك يحدث على الأقل بالنسبة للأعمال التي لم تكن شائعة بدرجة كبيرة.[٢٢]

الصراعات المسيحية في الإسكندرية

٢٧٦. فيلون السكندري. نقش من طبعة A. Thevet، «Les vrais pourtraits et vies des hommes illustres»، باريس ١٥٨٤.

كان فيلون السكندري أو اليهودي من الشخصيات الهامة في ذلك العصر حيث سعى بدوره إلى الربط بين العقيدة اليهودية (التي تعد سلفاً للمسيحية) والهيلينية عن طريق اللغة اليونانية.[٢٣] لقد اتسمت المسيحية في مصر بميول تشوبها البدع، خاصة فيما يتعلق بتأثرها بالغنوصية التي بدأت تتشكل منذ القرن الأول الميلادي، حيث أصبحت مصر مسرحاً للوئام بين الفكر الوثني والروحانية من ناحية والعالم المسيحي من ناحية أخرى، ومما يدل على تلك المواءمة وجود علاقات بين أعضاء المتحف والمدرسة اللاهوتية المسيحية الكبرى التي أسسها بانتيانوس[٢٤] ورفع من قدرها الكثير من المعلمين ونخص بالذكر من بينهم كليميس السكندري وأوريجينيس. وعلى الرغم من ذلك فإن الانتقال من مرحلة الوثنية إلى المسيحية قد تطور إلى قضية معقدة دامت أكثر

مـن أربعـة قـرون في منطقـة شرق البحـر المتوسـط، وخـلال هـذه الفـترة المضطربـة في أغلـب الأحيـان تـم ممارسـة الكثـير مـن الضغـوط عـلى عالَـم الكتـب بشـكل عـام وعـلى أصحـاب المؤلَّفـات ذات المحتـوى المخالـف لمراسـيم الإباطـرة الرومـان والبيزنطيـين.[٢٥]

ومنـذ وقـت انتشـار المسـيحية خـلال القـرن الأول الميـلادي وحتـى صـدور مرسـوم ميـلان عـام ١١٣ م - الـذي أنهـى بـه الإمبراطـوران قنسـطنطين الكبـير وليسـينيوس اضطهـاد المسـيحيين - شـهد الخـلاف بـين المسـيحيين والوثنيـين العديـد مـن الاضطرابـات المثـيرة، وقـد بلـغ ذلـك الوضـع الفوضـوي ذروتـه بالاضطهـاد الكبـير الـذي حـدث في عهـد الإمبراطوريـن دقلديانـوس وغاليريـوس أثنـاء نهايـة القـرن الثالـث وبدايـة القـرن الرابـع الميـلادي.[٢٦] وفي ظـل التعذيـب والمحاكـمات العلنيـة وأحـكام الإعـدام التـي كانـت تُنفـذ في العديـد مـن المسـيحيين، خلـق ذلـك الاضطهـاد مناخـاً مـن عـدم الثقـة والتعصـب والتحيّـز، كـما كانـت الأسـاليب التـي أدت إلى تلـك الخلافـات المتطرفـة تنبـع مـن رغبـة السـلطة آنـذاك في الحفـاظ عـلى التـوازن بـين الوثنيـين والمسـيحيين وذلـك مـن خـلال إبقائهـا عـلى مبـدأ التسـامح الدينـي.[٢٧] وعـن طريـق المرسـوم السـالف الذكـر تـم الاعـتراف بالمسـيحية عـلى أنهـا «ديانـة معتمـدة» (religio licita)[٢٨] ولكـن دون حظـر تقديـم القرابـين للآلهـة الأوليمبيـة. وكان الكتـاب خـلال هـذه الفـترة يعـد رمـزاً للعقيـدة المسـيحية وإنكارهـا في نفـس الوقـت، ولكـن وفقـاً لفكـر المسـيحيين آنـذاك كان جمـع الكتـب واستنسـاخها وتداولهـا وتصنيفهـا في المكتبـات يشـكل تهديـداً أدى إلى اختفـاء مـواد قيّمـة مـن الأدب المسـيحي المبكـر ونصـوص تتعلـق بالرسـائل.

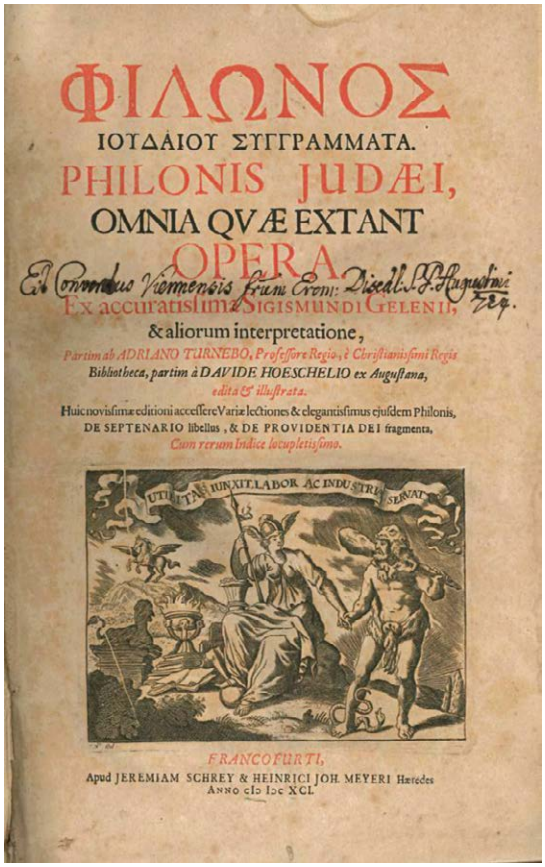

٢٧٧. صفحة العنوان من طبعة «Ἅπάντα»«الأعمال الكاملة» لـفيلون اليهودي (أو السكندري) باللغتين اليونانية واللاتينية: «Omnia Quae Extant Opera»، فرانكفورت، apud Jeremiam Scherey & Heinrici Joh. Meyeri haeredes، ١٦٩١.

كتب الوثنيين تحت الاضطهاد

عندما كان الإمبراطور الروماني قنسطنطين الكبير على وشك تأسيس القسطنطينية كعاصمة جديدة له دمج إلى بلاطه عرّافاً يُدعى بريتيكستاتوس، ومشرفاً على إقامة الشعائر يُدعى سوباتروس - من أفاميا حيث كان فيلسوفاً أفلاطونياً محدثاً وتلميذاً ليامبليخوس - إلا أنه

٢٧٨. قنسطنطين الكبير وبصحبته ٣١٨ أسقفاً في مجمع نيقية. في أسفل التصوير يقومون بحرق مؤلَّفات أريوس. منمنمة من مخطوطة خاصة بالقانون الكنسي يرجع تاريخها إلى أوائل القرن التاسع. فيرتشيلي، مكتبة المطرانية.

أمر بعد ذلك في عام ٣٢٦ م بهدم المعبد المهيب لأسكليبيوس الذي كان يقع في منطقة إيجيس بقيليقية.[٢٩] لم يتغير المشهد كثيراً خلال عهد الإمبراطور قنسطنطيوس، ففي الوقت الذي تم فيه إنشاء أول مكتبة جامعية في القسطنطينية تحت إشراف الفيلسوف المسيحي ثيميستيوس - الذي امتدح الإمبراطور السالف الذكر لقيامه بالحفاظ على الأدب اليوناني

القديم الذي تم الإبقاء عليه في الخفاء آنذاك – نجد أن الإمبراطور قد أطلق العنان أمام اضطهاد مروع ضد من كانوا يقومون بممارسة عِرَافة المستقبل أو يؤمنون بالنبوءات والطوالع[٣٠] لدرجة أن الفترة منذ عام ٣٥٤ م وحتى عام ٣٥٨ م اتّسمت بكونها خمس سنوات من «الهوس الديني» قامت السلطة خلالها باستهداف كافة الأعمال المتعلقة بالتنجيم، وقراءة الطالع، والتنبؤ عن طريق فحص أحشاء الحيوانات، والعِرافة وبالطبع جميع من كانوا يمارسون السحر،[٣١] ولم تترك لهجة المرسوم الإمبراطوري مجالاً للشك أو احتمالاً لمعنى آخر عندما قال: «فليصمت للأبد فضول الجميع حول معرفة المستقبل».[٣٢]

وبعد حوالي قرن من الزمان قام الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني بإصدار مرسومين (عام ٤٣٥ م وعام ٤٨٨ م) بهدف إدانة الفيلسوف بورفيريوس وكافة أعماله.[٣٣] كان بورفيريوس فيلسوفاً أفلاطونياً محدثاً عظيماً مدافعاً عن الوثنية ومعارضاً للمسيحية، وقام بمهاجمة المسيحيين في مؤلَّف له بعنوان (Κατὰ χριστιανῶν) (ضد المسيحيين)[٣٤] فأثار محتوى ذلك العمل غضب الإمبراطور والأسقف كذلك، حيث اعتُبر أن المؤلِّف كان يحاول القضاء على العقيدة الصحيحة بقوة خطابه، وانتهى الأمر بحرق جميع النُّسخ المتعلقة بذلك العمل.

العصر البيزنطي

لقد دخلت مصر تحت حكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية دون إراقة دماء، ولكن لم يعد المناخ المألوف للكلاسيكية والموروث الذي يتسم بالفصاحة موجوداً في العاصمة البطلمية القديمة. وعلى الرغم من عدم نجاح بطريرك الإسكندرية كيرلس في وقف عمل المدرسة الفلسفية هناك، إلا أن تأثير الرهبنة المستمر بالإضافة إلى رد فعل السكان الأصليين ضد القمع الاقتصادي شكّل ظروفاً هددت الهيلينية. وليس لدينا أي أخبار عن مكتبة الإسكندرية حتى القرن الرابع الميلادي، باستثناء المعلومات المتعلقة بزيارات إبيفانيوس وأفثونيوس لمكتبة معبد السيرابيوم، ولذلك فمن غير الممكن التحدث عن تلك الفترة سوى بشكل افتراضي.[٣٥]

كان الهدف من إنشاء مكتبة ملكية جديدة في نفس الإقليم بحيث تشتمل على نفس المحتوى هو أن تحل محل أي مكتبة سابقة، وفيما يتعلق بالمكتبة «الإمبراطورية» التي بدأ إنشاءها في القسطنطينية عام ٣٥٧ م فمن المؤسف عدم وجود أي معلومة جوهرية حول عملية إثرائها، فيما عدا أن الإمبراطور قنسطنطيوس الثاني كان هدفه الأساسي هو

جمع أعمال الأدب الكلاسيكي، وكل ما يمكننا تأييده هو عدم وجود ثروة كافية من الكتب في القسطنطينية لإثراء مكتبة بهذا الحجم، ومما يدل على ذلك أن الإمبراطور قنسطنطين الكبير عندما حاول قبل بضع سنوات الحصول على ٥٠ نسخة من العهد القديم، أضطر إلى اللجوء إلى ورشة عمل يوسابيوس في قيصرية.[٣٦]

الانتقال من لفافة البردي إلى (شكل) الكتاب/ المجلد

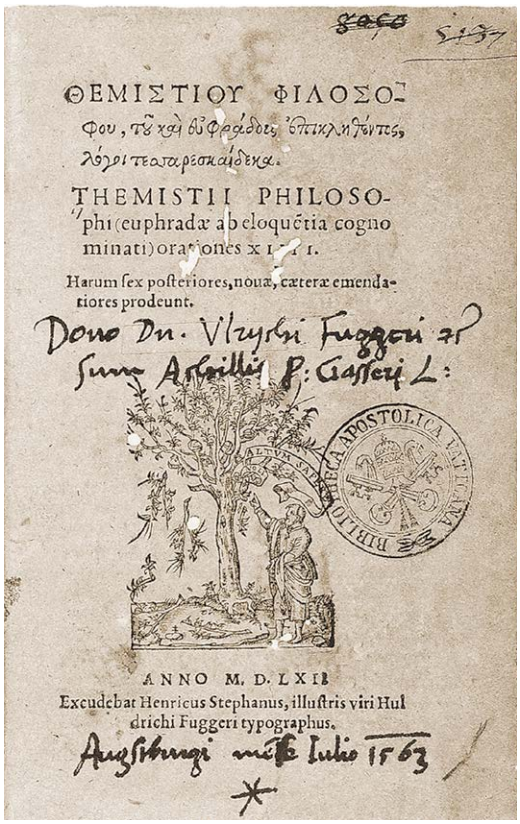

٢٧٩. صفحة العنوان من طبعة،
«Θεμιστίου φιλοσόφου ... λόγοι τεσσαρεσκαίδεκα»،
Henricus Stephanus، [جنيف] ١٤٦٢.

لقد لعب الابتكار المتعلق بشكل الكتاب دوراً حاسماً في أسلوب العمارة الداخلية للمكتبة فيما بعد، ويتمثل ذلك الابتكار في الانتقال من لفافة البردي إلى المجلد. لم يحدث ذلك الانتقال فجأة بل استغرق العديد من القرون، في حين يعد استخدام لفافة البردي جنباً إلى جنب مع المجلد خلال القرنين الثاني والثالث الميلادي أمرا مثيراً للدهشة.[٣٧] وقد أشرنا إلى هذه القضية هنا لأن هذا التغيير أثّر بشكل كبير على مصير كمية ضخمة من أوراق البردي التي كانت تحتوي عليها مكتبة البطالمة. وبعد اعتماد استخدام المجلد - وهو الشكل الذي عليه الكتاب اليوم - بصورة دائمة، توقف استخدام لفائف البردي في عملية نسخ النصوص،[٣٨] وأصبحت المؤلفات الجديدة ذات المحتوى اللاهوتي بشكل أساسي تُكتب عادة منذ البداية في مجلدات، في حين أن عملية نسخ أعمال الأدب القديم بالتدريج إلى الكتب بشكلها الجديد والسهل الاستخدام قد قلل بشكل كبير من قيمة الكتب النادرة المصنوعة من لفائف البردي والتي انتهى المطاف بالعديد منها إلى الاحتفاظ بها كأثر. ويمكن القول بأن لفيفة البردي

التي كانت تحتوي على نصّ كلاسيكي قد أصبحت قيمتها في السوق خلال فترة ما مساوية لقيمة اللفيفة الفارغة أو حتى أقل من ذلك، لأنها كان يجب أن تخضع لبعض المعالجة من أجل إعادة الكتابة عليها.[٣٩] وبالتوازي مع اعتماد استخدام المجلد ظهر ابتكار آخر عندما تم استبدال ورق البردي بالجلود، ومنذ القرن الأول الميلادي بدأت بالفعل علامات التغيير في الظهور، ففي الوقت الذي انتشر فيه التعليم بشكل هائل في جميع أنحاء الأراضي الرومانية، لم يعد ورق البردي في ذلك الحين قادراً على تلبية هذا القدر الكبير من الحاجة[٤٠] وبينما تم استخدام الجلود في البداية كبديل لورق البردي، إلا أن جفافاً كبيراً في عهد الإمبراطور تيبيريوس قد أدى إلى تغيير الواقع وانتشار استخدام الجلود، ولكن لابد من توضيح أنه طوال تلك الفترة كانت الحالة السائدة تتمثل في ربط أوراق البردي أو الجلود لتكوين مجلد.[٤١]

تمهيد الفصل الثالث عشر

سنقوم في هذا الفصل بمحاولة لدحض الرواية الأخرى المتعلقة باختفاء مكتبة الإسكندرية عن طريق حرقها من قِبل العرب كما تدل على ذلك العبارة الخرافية المنسوبة للخليفة عمر بن الخطاب، وعلى خلفية هذه الشهادة النابعة من مصادر عربية غير موثوقة، سوف يتم عرض آراء العديد من الرحالة والمؤرخين العرب الذين زاروا عاصمة البطالمة الأقدم في مصر، إضافة إلى تناقضهم وتحيزهم الأيدولوجي تجاه الأدب اليوناني القديم، وبتناول كل ما سبق نتبين أننا بصدد خرافة أخرى.